

اللغة العربية في إيران ماضيا وحاضرا ومستقبلا

أ.د. فكتور الكك

بيروت-لبنان

جاء حين من الدهر غدت اللغة العربية لغة عالمية. فقد انتشرت بانتشار الإسلام، في أصقاع متنوعة ومتباعدة وإذا بيان العرب ينداح مشرقاً من تخوم الصين إلى الجنوب الغربي من أوروبا. باسطة جناحيه فوق الشرق الأوسط ومصر وشمال إفريقيا.

إلا أن الذي أرسى قواعد انتشارها الكوني كانت الحضارة التي احتملتها لغة الضاد فارتادت الإنسانية بها آفاقاً ما تزال تنعم بها حتى اليوم. هذه الحضارة أطلق مسيرتها العرب بنشر لغة القرآن جنباً إلى جنب مع انتشار الإسلام، فتلقفتها الصفوة من الشعوب التي دخلت فيه أفواجا، نائلة إلى بيانها الطافح بالحيوية تراثها المتقادم، مفجرة، عبرها، طاقاتها الكامنة أو المترهلة بمرور الزمان.

وقد انمازت الأمة الإيرانية، من بين سائر الأمم، بالإسهام الكبير في حضارة العرب والإسلام، وبالتبريز في العربية وتقعيدها وجمعها. فحدا ذلك ابن خلدون على القول إن أكثر حملة العلم في الإسلام كانوا من العجم¹.

ومع ذلك، ورغم واقع انتشار العربية في إيران الكبرى أيامئذ الذي سنعرض له، لماذا لم تتحول العربية في أراضي الشاهنشاهية الساسانية إلى لغة تعبير شعبية، كما حصل في بلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين وساحل لبنان؟ حتى إذا ما أخذ القرن الثالث للهجرة يتصرم اشتدّ عود

. رئيس مركز اللغة الفارسية وآدابها، أستاذ الحضارة العربية الإسلامية والأدب العربي المقارن بالجامعة اللبنانية، بيروت؛ أمين سر المجمع الثقافي العربي.

¹ - راجع المقدمة، ص 74، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت.

اللغة الفارسية الدرية وظهرت بوادر الشعر فيها، لينطلق هادرا مع رودكي، من بعد، (المتوفى 329 هـ/940 م) وراسخا ثم موطد الأركان مع شاهنامه الفردوسي (411 هـ/1020 م)...
 إن في تتبع مسار العربية عبر القرون، ودراسة الأسباب والنتائج، دروسا وعبرا تنير طريقنا في سعيينا المطلوب إلى استعادة لغتنا دورها العالمي.

تلازم الإسلام والعربية

رافق انتشار الإسلام في إيران شيوع اللغة العربية لغة دين وحكم ونخب، ومع أن العربية لم تتحول إلى لغة محكية يومية، فإنها اكتسبت هالة من القداسة، لأنها لغة الدين الجديد، بها أوحى به إلى الرسول قرآنا منجما، وتكرر تأكيد ذلك مرارا:

- إنا أنزلناه قرآنا عربيا².

- وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا³.

- وهذا لسان عربي مبين⁴.

بذلك أحكمت بين الدين الجديد ولغة القرآن رابطة لا تنفصم. فأدى الأمر إلى نتائج معروفة في الأهمية والعمق. من ذلك أن ترجمة القرآن بلغات أخرى كانت تبدو غير ممكنة، فمعانيه الرفيعة ومغازيه العميقة ما كانت لتنتقل إلى لغة من دون تعرضها إلى تبديل أو تحوير أو نقص ما وهو

² سورة يوسف: 2.

³ الشورى: 7 فما بعد.

⁴ النحل: 103.

أمر يؤدي إلى تشويه كلام الله وإخراجه عن جوهره ومقاصده. من هنا. حتم هذا الارتباط غير المنفصم العرى على كل مسلم تعلّم العربية. أيّا كانت لغته الأمّ توسلاً إلى فهم دينه بفهم القرآن عقيدة وشريعة ونهج حياة. ولا سيّما أن ذلك عزّز بالحديث النبوي القائل: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

إذا أضفنا إلى ذلك ما رافقه من سيطرة سياسية طبيعية للحكام من العرب. وشغف المغلوب في تقليد الغالب، وإن يكن دونه حضارة، وفق قاعدة ابن خلدون الاجتماعية، أدركنا تلقّي الإيرانيين لغة العرب على أنها لغة مقدسة وشريفة في آن، وعادات العرب وتقاليدهم ونهج حياتهم على أنها شؤون مثاليّة، فغدت قدوة لهم ومثالا بنسجون عليه.

العربية تلتحم بالثقافة الإيرانية

في هذا السياق الحيويّ التحمت ثقافة العرب بحياة الإيرانيين- والثقافة، مهما تعددت مفاهيمها، تختصر في أنها منهج حياة- وكانت اللغة العربية المتجسّدة في القرآن والشعر العربيّ العمود الفقري لهذه الثقافة.

خلال تلك المرحلة هبطت اللغة الفهلوية الساسانية من مستوى رسميتها إلى مستوى اللغات واللهجات الإيرانية الأخرى التي كانت متداولة في أرجاء الشاهشاهية الساسانيّة، فامتزجت مفرداتها بمفردات العربية الوافدة، وتراجعت معاقل صفائها إلى بيوت النار الزرادشتية لغة طقوس ورسوم.

ومع ترسخ السلطنة العربية في أطر الحياة وشؤونها في إيران وطموح أهل البلاد إلى المشاركة في السلطنة والحياة العامة، وهجرة بطون وأفخاذ من القبائل العربية إلى إيران، واستقرارها هناك، وامتزاجها بالإيرانيين في الجوار والزواج والتعاطي اليومي، ازداد نفوذ العربية في ألسنة الإيرانيين ولهجاتهم حتى إذا انقضى القرن الثالث للهجرة أو كاد كانت اللغة الفارسية الدرية قد اشتد أسرها، معيدة إلى إيران لغتها القومية، وإن متوكنة على العربية في سبيل النهوض.

وخلال تلك الحقبة من التطور كانت الدولة العباسية قد استحکم سلطانها، واشتد اختلاط العرب بالإيرانيين ولا سيما في العراق قاعدة الخلافة، ونشأ جيل مولد من الشعبين، نبه منه شعراء بالعربية مجلّون طوّروا الشعر العربي، وأسلسوا صياغته، وخرجوا به من التقليد إلى التجديد في الموضوعات والأساليب والتعبير وما إلى ذلك.

في كنف هذا الإرث الشعري العريق المتجدد، نشأ شعراء الفارسية الأولون. كان هؤلاء من ذوي اللسانين العربي والفارسي، تفتحت قرائحهم على العطاء الشعري بالعربية، بعد أن ثقفوا علوم العربية الموصلة وعلوم الدين، وحفظوا من الشعر العربي قصائده ومقطوعاته وتفقهوا في أساليب بيانه.

فبعد مرور نيف وقرنين على قيام الخلافة وهنت السلطة المركزية وازداد استقلال حكام الأطراف. رافق هذا المد الاستقلالي في السياسة والحكم عودة التبلور في الهوية، وبروز الحس القومي من جديد، فشجع الصفاريون في مشرق إيران ثم السامانيون في تلك الأطراف وآسيا الوسطى

(ولا سيما في عاصمتهم بخارى) شعراء البلاطات على اعتماد اللغة الفارسية الدرية- أي لغة البلاط، دربار- لغة تعبير شعري. وهكذا، بدأ، شيئاً فشيئاً عهد من الاستقلال الأدبي في إيران، مواز للاستقلال السياسي النسبي.

انحاز الشعراء الإيرانيون الذين كانوا قد قرضوا الشعر بالعربية إلى صياغته بالفارسية، وراضوا طباعهم على التعبير بهذه اللغة، بعد العربية. وهكذا برز جيل من شعراء اللسانين معاً، من أمثال شهيد البلخي والرودي وأبي الطيب المصعبي، وحنظلة الباذغيسي وسواهم. فانطلقت قافلة الشعر الفارسيين وما تزال مضاهية شعر العرب غزارة وحيوية وغنى. لقد غدت الأمة الإيرانية بعد الإسلام أمة شعر تُدَلَّ على الدنيا بتراث لها فريد. وما كانت كذلك من قبل. بل كان لبّ تراثها في العهد الساساني يدور في فلك الأدبيات الدينية. ومع أن قسماً من ذاك التراث ضاع أو ضيع، إلا أن ما تبقى منه لا يُنْبئُ بأن مكانة الشعر كانت فيه سامقة، والإنتاج فيه كان غزير ومميزاً. فقد نشأ شعراء الفارسية الأولون كما ذكرنا، في كنف الشعر العربي فاتخذوه مثلاً يحتذى في المضمون والشكل، في فنونه وأغراضه ومطالبه *thèmes*، وأساليب بيانه وتبيينه وعروضه. وكان الشعر العربي، منذ العهد الجاهلي، قد بلغ مكانة سامقة واستحكم مضمونها وقالبها. وغدا النموذج الذي اتخذه شعراء العربية من عرب وغير عرب، فيما بعد، ولا سيما الإيرانيين منهم، فكأنهم حين جعلوه مثلاً أعلى في شعرهم بالفارسية قد استردوا بذلك بعض بضاعتهم وإسهامهم في الإبداع فيه.

دمغة العربية ومثالياتها

كانت الدراسة في آلاف الكتابات التي انتشرت في دار الإسلام، ولا سيما في إيران، تقوم على تعلّم القراءة وقواعد العربية في صرفها ونحوها، بالسليقة والمعاينة أولاً، ثم على نهج سيبويه ابن بياض شيراز. ثم يعمد العلماء إلى تحفيظ تلامذتهم قصائد الشعر الجاهلي ومعلقاته ولا سيما مطولات امرئ القيس ولبيد والأعشى وسواهم وصولاً إلى جرير والفرزدق والأخطل، فالإبشار وأبي نواس ومهيار الديلمي وأبي تمام والبحثري والمتنبي، متدارسين مذهبهم في البلاغة. وما ذلك إلا سبيل إلى فهم القرآن وما انطوى عليه من عقيدة وشريعة. ولذلك، سميت هذه العلوم وسواها العلوم الموصلة. ولما لم تكن العربية لغة الإيرانيين الأم فقد بذلوا في سبيل تعلمها لفهم دينهم الجديد ما لم يبذله العرب فأدّى الأمر بهم، فيما بعد، إلى التفوق، بعد أن انتشرت العجمة في الألسن باختلاط الأعراق واللغات. يقول دولتشاه السمرقندي ما ترجمته بالعربية في هذا الموضوع: إنّ الفصاحة والبلاغة من خصائص العرب، وإن شعراء الفارسية يحذون حذو شعراء العرب في هذا الصدد ولا سيما في أوزان الشعر، لأن العرب هم أساتيد هذا الفن غير منازعين⁵.

إلا أن ديوان المتنبي في القرن الرابع للهجرة وما بعده، و"قفأ نبك" معلقة امرئ القيس، قبل ذلك، شكلاً دُرّتي البرامج الدراسية أيامئذ. جاء في تاريخ البيهقي ما يعني بالعربية:

⁵ - تذكرة الشعراء، ص 19

قال الأمير مسعود لعبد الغفار: ينبغي أن يؤخذ من الأدب بصرف.
فعلمني قصيدتين من ديوان المتنبي و"قفانك".⁶

وإلى جانب دراسة القرآن والحديث النبوي وما دار في فلكهما والشعر العربي. كان الطلاب يأخذون بآثار من النثر ولو نزرة يسيرة إلى جانب الشعر، في مراحل لاحقة. يقول نظامي العروضي السمرقندي ما مؤداه بالعربية، متوجّها إلى عدّة كتّاب الفارسيّة من العلوم والمعارف ما معناه بالعربيّة: "يجب اعتياد مطالعة كلام رب العزة وأخبار المصطفى وآثار الصحابة وأمثال العرب وكلمات العجم ودراسة كتب السلف ومناظرة الخلف كمثّل ترسل صاحب الصابي... وقدامة بن جعفر ومقامات البديع والحريري... ومن دواوين العرب ديوان المتنبي".⁷

أما رشيد الدين الوطواط فيفصل الأمر صراحة إذ يقول في صدد كلامه على تأثير المتنبي في الشعر الفارسي ما ترجمته بالعربيّة: "في اقتباس المعارف [والمعاني] الدقيقة ومتانة [السبك]، جميع الشعراء الإسلاميين عيال على المتنبي، وقد طارت شهرة ديوانه بين العرب والعجم، [فنترى] صدور الفضلاء يعزّون ديوانه".⁸

⁶ تاريخ البيهقي، ص 112.

⁷ جهار مقاله (المقالات الأربع، بالفارسيّة)، ص 22.

⁸ راجع تذكرة الشعراء، ص 24.

ثم إن رشيد الدين كذلك، إذ أراد التدليل على مكانة عنصرى وفرّخي في الشعر الفارسيّ عمد إلى تشبيههما بالمتنبي ذاهبا في "حدائق السحر" إلى أن فرّخي بالنسبة إلى الإيرانيين هو في منزلة المتنبيّ بالنسبة إلى العرب⁹. هذه الشهادات التي يدلي بها نقاد الشعر الفارسيّ ومؤلفو كتب البلاغة الفارسية تنهض دليلا على الأثر الدامغ الذي خلّفه الشعر العربيّ في الشعر الفارسيّ، في المضمون والفنون والشكل، كما سنرى تباعا، ولا سيما في مرحلة نشوء الشعر الفارسيّ ثم في مرحلة توطد أركانه.

كما أنّ هناك وجها آخر للاعتراف بهذا الأثر يكشف النظرة المثالية التي تعبّر عن انبهار شعراء الفارسيّة بشعراء العربيّة وعظماء العرب من غير الشعراء. وهذا أمر طبيعيّ، فالعربيّة، من جهة، غدت في وجدان المسلم الواعي، لغة مثالية تنزّل فيها كلام الخالق، وشعراء العرب كانوا أساتذة شعراء الفارسيّة، فكان من طبيعة الأمر أن يفخر التلامذة بأساتذتهم ويعتزوا بهم ويصبوا إلى مكانتهم.

ها هو رودكي (المتوفى 329هـ/940 م) موطّد أركان الشعر الفارسيّ، على غرار امرئ القيس عند العرب، يشبّه نفسه بجريّر وحسان بن ثابت وأبي تمام وصريع الغواني مسلم بن الوليد وسحبان وائل سيّد الفصاحة والخطابة. يقول في مدح أبي جعفر أحمد بن محمد بن خلف بن الليث حاكم سجستان في قصيدته الشهيرة "مادرمي" أي أمّ الخمرة، مبيّنا تقصيره في مدح الحاكم مهما يفرغ عليه من الصفات:

⁹ تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ص 133، وهو الترجمة العربية للمجلد الثاني من تاريخ الأدب في إيران من تأليف ادوارد براون قام بها ابراهيم الشواربي.

شعر سزاوار ميركفت ندانم، ورجه جريرم بشعر وطني رحسن.
 سخت شكوهم كه عجز من بنامايد ورجه صريعم بافصاحت سحبان¹⁰
 وترجمته بالعربية كما يلي:
 لست أحسن قول شعر يليق بالأمير.

وان أكن في الشعر (بمنزلة) الطائي وحسان،
 أنا في خوف شديد من أن يبين عجزى.

مع أني صريع الغواني (ترفدني) قصاحة سحبان،
 ورد هذا المنحنى في شعر رودكي مكرراً وصار من بعده سنة أخذ بها
 معظم الشعراء، ولا سيما في معرض المديح أو الفخر بالنفس والتفوق في
 الشعر، مثل فرخي وعنصري، وبخاصة من وجهري سيد شعراء الوصف
 والخمرة في الأدب الفارسي، وقد بالغ كثيراً في تشبيه نفسه بشعراء العرب
 وأساتذته في الشعر، وتشبيهه بمدوحيه بعظماء العرب حتى بلغ حد
 التفريط، فغدت أقسام من قصائده مسرداً لأسماء شعراء العرب وكتابهم
 ومشاهيرهم وتحولت، أحياناً، أحجيات في ذكر ألقابهم أو كناههم...
 وتوخيّاً للإيجاز، نقتطع من قصيدته الشهيرة في وصف الشمعة التي
 يختمها بمدح الشاعر عنصري بضعة أبيات فقط تدليلاً على ما نقول:
 كو جرير وكو فرزديق كو زهير وكو لبید
 رؤية عجاج وديك الجنّ وسيف ذو یزن
 كو حطبئة كو أمیة كو نصیب وكو كمیت
 أخطل وبار برد، أن شاعر أهل یمن؟

¹⁰ - أحوال وأشعار رودكي (بالفارسية)، تأليف سعيد نفيسي، ص 1016-1018.

وان ذو عمرو القيس وأن ذو طرفة ونابغة

وان ذو حسان وسه أعشى وان سه حماد وسه زن؟¹¹

أما بعض قصائد منو جهري الأخرى فتغدو مسردا لمطالع القصائد العربية المعروفة فنتبين من خلالها سعة اطلاعه على تراث العرب الشعري المعروف منه والمغمور الذي لا يلمّ به سوى واسعي الإطلاع من الباحثين، كمثل قوله:

أنكه كفتست آذنتنا، أنكه كفت الذاهبين

أنكه كفت السيف أصدق أنكه كفت أبلى الهوى¹²

وكثيرا ما جاوز شعراء الفرس ذكر أسماء الشعراء العرب وتشبيههم أنفسهم بالمشهورين منهم وذكر مطالع القصائد المعروفة إلى ذكر أبرز خاصة في شعر شاعر عربي أو ناثر بالعربية أو خطاط، نظير قول منو جهري في قصائد متعددة، مثلا:

- سخت نكو حكمتي جون حكم بو معاذ¹³.

- سديكر مخلص أخطل جهارم مقطع أعشى¹⁴.

وترجمتها تباعا:

- أنت معرق في جودة الحكمة على غرار حكم أبي معاذ (أي بشار

بن برد)

- الثالث مخلص الأخطل والرابع مقطع الأعشى.

¹¹ ديوان منو جهري، ص 73-74.

¹² ديوان منو جهري، ص 140.

¹³ ديوان، ص 20

¹⁴ ديوان، ص 120.

إضافة إلى ذلك، ما أكثر ما ذكر شعراء الفارسيّة صراحة أو من طرف خفيّ أسماء المؤلفات العربيّة الشهيرة في النحو والصرف والأدب واللغة والتاريخ، مثل كتاب الكامل للمبرّد (ت 285 هـ/898 م)¹⁵ وشرح ابن جنّي (ت 392 هـ/1002 م) والمنصف في شرح تصريف المازني¹⁶ (249 هـ/863 م). والكتاب لسيبويه ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام¹⁷ (ت 1360 م).

كما درج رهط من شعراء الفارسيّة على المبالغة في استخدام المفردات والتعابير العربية في حشو قصائدهم ومقطوعاتهم، أو في قوافيها، وأحياناً في الاثنين معاً، وهي على وزن واحد بحيث تغدو رديفاً أي: بحيث تصبح القافية كلمة كاملة، وفي بعض المواضع أكثر من ذلك. وهذا بيّن في عصور الشعر الفارسي المختلفة.

فهذا برهاني والد الشاعر المعروف معزّي يأخذ بذلك ويبالغ في قصيدته الشهيرة لدى المشتغلين بالأدب الفارسي القديم ذات المطلع الآتي:

سلام على دار أم الكواعب بتان سیه جثم عنبر ذوائب¹⁸
وهذا الابن المرموق يسير على سنّة والده ومعاصريه، أي: الشاعر معزّي، مبالغاً في استخدام المفردات والتعابير العربيّة حتى أنك لتجد نفسك أمام قصيدة عربيّة اللغة لا يشوبها سوى بضع كلمات فارسيّة:

¹⁵ ديوان، ص 58.

¹⁶ ديوان، ص 113.

¹⁷ ديوان، ص 113.

¹⁸ راجع دراسة الدكتور محمد معين حول هذه القصيدة في جملة مهر، العدد 8، السنة 7.

متحدّياً في شدّة الأسر والتشطير في مقاطع الوزن العروضي شعراء العرب
العظام؛ يقول في قصيدة طويلة هذا مطلعها:
إي ساربان منزل مكن، جز در دیار من

تا یکزمان زاری کنم بر ربیع و اطلال و دمدمن¹⁹
ثمّة، كذلك، شعراء آخرون ركبوا هذا المركب الخشن مبالغين حتى
ابتعدوا عن لغة الناس المليئة بالألفاظ العربية إلا أنها مأنوسة. وخير مثال
على ذلك قصيدة لامعي جرجاني التي ننقل هنا بعض أبياتها، تلافياً
للإطالة:

هست آين دیار یار، شاید فرود آدم جدمل،
یرسم رباب ودعد راحال از رسوم وازطلل!
جویم رفیقی را اثر، کو دارد از لیلی خبر،
داند کزین منزل قمر، کی رفت کی آمد زحل؟
بی آب ما نده منبش، بی بار مانده مرتش،
در قاعهای بلقیش خیل شیاطین را زجل!
رخسا وزلفش را عرب، در شعر خوانده روزوشب،
رنکینش رخ شیرینش لب، سنکینش دل سیمین کفل
برد از دلم صبر و خرد، جون بانک را برناقه زد،
کاریم بییش آورد بد، لما تولى وارتحل²⁰

¹⁹ راجع دیوان مغزی، ص 597.

²⁰ - دیوان لامعی، ص 85.

أسباب الأثر العربي

لا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أن التأثير الشديد الذي أحدثه الشعر العربي في الشعر الفارسي أيامئذ، ثم فيما بعد، نسبياً، والمبالغة في استعمال المفردات والتعابير العربية على هذا النحو الذي مثلنا عليه والذي لم يكن ليتمت بصلة إلى اللغة الفارسية التي كانت شائعة في إيران حينذاك، يعود إلى عوامل مختلفة، منها:

أولاً: نظام التعليم الذي كان معمولاً به في إيران.

ثانياً: بلوغ مستوى اللغة العربية بين النخبة الإيرانية في إيران الكبرى يومذاك، وصولاً إلى خراسان الكبرى وآسيا الوسطى، منتهى الرفعة والتفوق خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة بحكم التطور الطبيعي.

ثالثاً: تشجيع البلاطات والحضرات المستقلة وشبه المستقلة عن السلطة المركزية في بغداد الكتاب والشعراء والمنافسة فيما بينها لاستقطابهم: بلاطات آل بويه في عراق العجم وفارس، وابن العميد والصاحب بن عباد في الري وأصفهان، وشمس المعالي قابوس بن وشكمير الزيارى في طبرستان وجرجان، والسلطان محمود الغزنوي في غرفة وما يعرف اليوم بأفغانستان وصولاً إلى الهند، وسوى ذلك من مباءات اللغة العربية في أراضي الشاهنشاهية الساسانية المتكثرة دولاً ودويلات. وقد كان لتنقل الأدباء والشعراء بين هذه البلاطات وأسفارهم أثر في ترويج اللغة العربية والشعر العربي في تلك الأصقاع النائية حتى في الحضرات التي كانت تستقبل شعراء العربية والفارسية في آن مثل بلاط الغزنويين.

رابعاً: دون الأكثرية من شعراء الفارسية حتى عهود متأخرة من الشعراء ذوي اللسانين، يقرضون الشعر بالعربية والفارسية، في آن، أو يكثرون في اتجاه ويقولون في اتجاه آخر بحسب البيئة التي وجدوا فيها، إلا أن تأثير الشعر العربي في الشعر الفارسي ظل غالباً، فلم يسهل هذا الأمر نقل لطائف الشعر الفارسي ومناحيه الفنية المميزة إلى الشعر العربي، مع أن أعلامه كان أكثرهم من الإيرانيين لأن عمود الشعر العربي في المضمون والشكل غلب عليهم والتصق في لاوعيهم باللغة العربية. ويكفي أن نعود إلى "يتيمة الدهر" للثعالبي النيسابوري لنتبين العدد الضخم من شعراء العربية الإيرانيين في القرن الرابع. ودونك على ذلك بعض الأسماء: أمراء آل بويه، صاحب بن عبّاد، بديع الزمان الهمذاني، شمس المعالي قابوس بن وشكمير، أبو الفتح البستي، وسواهم. ويقال مثل ذلك في كتاب النثر والأدباء.

خامساً: تأسيس النظاميات. فمع أن السلاجقة اعتمدوا منذ القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد اللغة الفارسية لغة سياسية وبلاط وأدب، وتلاههم في ذلك سائر الفصائل التركية ولا سيما بعد تشرذمها، فقد حافظت العربية على مكانتها لغة للقرآن والدين والفقه. وكان لتأسيس النظاميات - وهي معاهد تعليم عال - في المدن المهمة أثر في الحفاظ على العربية.

لذلك، أي: لهذه الأسباب مجتمعة، ولا سيما نظام التدريس الكلاسيكي الذي لم يتبدل كثيراً والذي أصبح مؤسسة مركزية في

النظاميّات، استمرّ استعمال المفردات العربيّة في ازدياد خلال القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد وما بعد ذلك. ومعلوم أنّ اللغة تحتلّ معها أساليب البيان والمعاني والفنون الشعرية. وذلك كله بيّن في شعر سعدي. سيّد الحلاوة الفارسيّة، شعرا ونثرا. ومجمع بحري الفصاحة والبلاغة باللسانيين العربيّ والفارسيّ، وإن رجحت كفة الفارسيّة عنده على العربيّة. كذلك مثل حافظ الشيرازي العظيم الذي لم ينظم بالعربيّة نظما خالصا شأن سعدي، إلا أن ديوانه مليء بالأشعار الملمعة والأبيات العربيّة. وبحسبك أن يكون الشطر الأول الذي يوازي بيتا من أول غزليّة أثبتت في ديوانه هو بالعربيّة:

ألا يا أيها الساقى أدر كأسا وناولها...

ولكم جاءت قوافيه عربيّة مقرونة بعلامات الجمع بالفارسيّة أو ما شاكل ذلك.

لن أقف عند سعدي وأثر الشعر العربي فيه لأنّ بعض الدراسات والأبحاث تناولت جوانب من ذلك، وإن قليلة حتى الآن، قام بها إيرانيون وعرب. فقد نشرت مؤسسة البابطين، بإشرافي ومشاركتي، أربعة كتب في هذه المناسبة خصّ باثنين منهما وبجزء من الثالث. أضف إلى ذلك أنّ مجلة "الدراسات الأدبيّة" التي أتولى رئاسة تحريرها، في مركز اللغة الفارسيّة وآدابها في الجامعة اللبنانية خصّت سعدي بالعدد الأول منها كاملا في ثلاث مئة وأربع وستين صفحة.

أعود إلى حافظ صنو سعدي في السحر الشعري الحلال، لأقول في تأثره بالشعر العربي والبيان العربيّ ولا سيّما الضارب جذوره في القرآن، ما به

دلالة على تأثره المميز. فقد اعتصر هذا العبقرى تراث الغزل في الشعرين العربي والفارسي، وغزل العشقين المجازي والحقيقي، خمرة لكلامه الأثيري فإذا هو في غزلياته الشهيرة التي صاغها عقد لآلئ نادرة في جيد الإبداع يذكرّك بجميع الشعراء الغزليين، ولا يذكرّك بأحد في آن!

ومن الكلمات القصار، أيضا، التي أقولها في حافظ والتي تبرز أناقة تأثره بالشعر العربي وعمقه المنزه عن التفاصيل: لقد بلغ شغف حافظ بالشعر العربي واللغة العربية والقرآن مبلغا جعله يطلق المرمى الشعري الرمزي لغزلياته أو يختم تطوافه في عالم الفناء والبقاء، بصدر بيت عربي أو عجز بيت. لكننا الإشارة الأولى لانطلاق نقرة السمفونية الغزلية لا يطلقها إلى فضاء العرفان الأكبر سوى شعر عربي يعود ليتنزل وحيّا على سائر الأبيات - وهو حافظ القرآن- الحافظ، تعريفا- شأن الأحرف الرموز في مطالع سور القرآن حبيب روحه. حسبنا هذا، ولتغب عنا التفاصيل! بعد هذه الظواهر - العوامل لتأثير الشعر العربي في الشعر الفارسي، نختار عينات وميادين من فنون الشعر وأغراضه تجلّى فيها هذا التأثير إذ إنّ التوسع في الأمر يستلزم أطاريح مطوّلة.

تعميز العربية

إضافة إلى التأثير اللغوي العربي في مجال الأدب الفارسي، شعره ونثره: لا بدّ من الإشارة إلى خاصية في العربية نفسها- علاوة على العوامل السياسية والدينية وطلب المكانة الاجتماعية والإفادة المادية وسواها- جعلتها مؤهلة للدور العالمي الذي اضطلعت به، هي خصوصية الاشتقاق. ولنترك الكلام، في هذا السياق، لسوانا، كي يشهد لنا من ليس

من أهل العربية، ولا سيما إذا كان علما من أعلام الاستشراق مثل البروفيسور المغفور له "إدوارد غرانفيل براون" Edward Granville Broune حيث يقول:

"والعربية في الحقيقة من أصلح اللغات لتأدية الأغراض العلمية، فهي غنية بالأصول وبالمشتقات الناتجة عن هذه الأصول. والمشتقات فيها كثيرة، وهي تتفق مع الأصل في اتصالها به من حيث المعنى وإن تحوّر معناها قليلا بحسب اشتقاقها أو صياغتها". ثم إنه [براون] يضرب على ذلك أمثلة لكلمات مشتقة من جذور غفر وكمل وسقى، يقول:

"ولكي نبرهن على ذلك يحسن بنا أن نسوق المثليين الآتين، فأما أولهما فمستمدّ من الاصطلاحات الطبيعية القديمة، وأما الثاني فقياس عليه ليمثّل لنا فكرة حديثة.

"للفعل العربيّ صيغ تبلغ الاثنتي عشرة صيغة، كل منها تمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلي، فإذا أخذنا صيغة "الاستفعال" من "غفر" أمكننا أن نشقّ كلمة "استغفار" بمعنى طلب الغفران، وكلمة "مستغفر" بمعنى طالب الغفران، وكذلك يمكننا أن نشقّ من كلمة "كمل" كلمتي "استكمال" و"مستكمل"، وهكذا في بقية الأفعال. فلما ظنّ أطباء العرب أنّ مرض الاستسقاء ناتج من كثرة الشرب، أسموه بهذه التسمية التي اشتقّوها من كلمة "سقى" وأسموا المريض به "مستسقي". فلما بدت الحاجة في العصور الحديثة إلى مرادف لكلمة "أرينتالست" Orientalist لجأوا في العربية إلى مادة "شرق" وصاغوا منها قياسا على ذلك كلمة "مستشرق" بمعنى "الرجل الذي يطلب الشرق" أو "يجد المتعة في

دراسته". وهذان المثالان فيهما الكفاية للتدليل على مقدار اليسر الذي يصادفه الكاتب العربي إذا شاء التعبير عن أفكار جديدة أو مستحدثة، فما عليه إلا أن يلجأ إلى أنواع الصيغ والمشتقات، وأن يختار منها ما يناسب التعبير عن فكرته، وسيكون في كل الأحيان موفّقا في حسن الأداء ورعاية الدقة حتى لو لم تكن الكلمة التي اختارها قد استعملها أحد من قبله²¹.

عالية العربية وانحسارها ونفوذها:

أدت الأسباب المذكورة، مجتمعة، إلى انتشار عالمي للغة العربية، فاعتمدها الأدباء والشعراء والفلاسفة والأطباء وسائر المبدعين في العلوم الوضعيّة لغة تعبير، لا فرق في ذلك بين عربيّ وإيرانيّ وتركّيّ وسنديّ وروميّ. والأسماء في هذه الحقول كثيرة ومعروفة. ولأعلام إيران بينها حصّة الأسد.

إلا أن القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد شهد بوادر تأليف بسواها، ولا سيّما بالفارسيّة، نهض بها أعلام مثل ابن سينا والإمام أبي حامد الغزاليّ وسواهما. أمّا مؤلفات أخيه أحمد الغزاليّ في مسائل التصوّف فقد جاءت جميعها بالفارسية، إضافة إلى مؤلفات أخرى قام بها سواهم في مجالات المعرفة المختلفة.

ثمّ إنّ وصول السلاجقة الأتراك إلى الحكم وانبساط رقعة السلطنة الغزنوية حتى الهند قلّصا من انتشار العربية ونفوذها، وأديا، إضافة إلى

²¹ - تاريخ الأدب في إيران (ج2) من الفردوسي إلى السعدي، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربي، مطبعة السعادة بمصر، 1373 هـ/ 1954 م، ص 16-17.

عوامل أخرى، إلى حصر التأليف بالعربية في شؤون الدين والفقه وما إليهما، رغم الدور الذي اضطلعت به المدارس النظامية، وحلّت الفارسية محلّها لغة للبلاط وللدبلوماسية في إيران وآسيا الوسطى والهند.

وهكذا، بعد أن اجتاحت اللغة العربية المشرق بدأت رقعة امتدادها تنحسر. فقد شهد القرن الخامس للهجرة قمة العطاء في الشعر الفارسي إذ بلغ غايته في الإحكام في آثار عنصري وفرّخي ومنوجهري وعبد الواسع جبلي وسواهم. حتّى إنّ الذين اعتمدوا العربية في مؤلفاتهم العلمية مثل عمر الخيام أو في جلّ مؤلفاتهم مثل ابن سينا قرضوا الشعر بالفارسية. فقد أثر عن هذا العبقرى حتّى الآن اثنتا عشرة رباعية وغزليتان ومقطوعة بالفارسية جمعها المستشرق إتيه ونشرها سنة 1857م مع ترجمة بالألمانية لها بعنوان "ابن سينا، شاعرا غنائيا بالفارسية"²². أمّا شأن عمر الخيام في رباعياته فلا حاجة بنا للتوسّع فيه لأنّ رباعياته الفارسية ترجمت مرارا بالعربية وطارت شهرتها في الآفاق في مختلف لغات العالم.

إلا أنّ انحسار اللغة العربية قابله نفوذ لها عجيب في اللغة الفارسية وآدابها، كما رأينا، تمثّل في سيل من الألفاظ والتعابير المتعلّقة بالدين والفقه، كذلك بشؤون الحياة اليومية العادية، وفي الاتجاه نفسه في لغة العلوم الوضعية. وهكذا اجتاحت العربية الفارسية، وكذلك اللغات التركية واللغة الأردية، وتحول حضورها المباشر في الحياة والثقافة إلى حضور غير مباشر، ما يزال قائما حتى اليوم.

²² - راجع: مجلة Gottinger Nachrichten، 1875، ص 455-567.

لغة الصفوة لا الشعوب:

والذي تجدر ملاحظته، في هذا الصدد، أن اللغة العربية لم تتحول، في يوم من الأيام- في إيران والمناطق الشرقية من أراضي الخلافة العباسية وصولاً إلى آسيا الوسطى- إلى لغة محكية تتكلم بها الشعوب الإيرانية والتركية، رغم سيطرتها لغة ثقافية عالمية. فقد احتفظت الشعوب الإيرانية بلهجاتها المحلية الكثيرة، إضافة إلى الفارسية الدرية التي ارتفعت إلى مستوى لغة الشعر والأدب بشكل عام. وهذا مخالف لما جرى في العراق وبلاد الشام.

ويعود ذلك إلى أسباب شتى. منها أن الرقعة الواسعة للشاهنشاهية الإيرانية وصعوبة الاتصال بين أقطارها جعلت منها جزائر لغوية مستقلة يتكلم سكانها بلهجات إيرانية مختلفة، وإن تفرّعت، في الأصل، من اللغات الإيرانية الآرية المشتركة. فلم تكن وسائل الاتصال والإعلام المتوافرة في أيامنا ممكنة أيامئذ لتقرب بين الناس. وما يزال هذا الوضع قائماً حتى اليوم رغم سيطرة اللغة الفارسية منذ أكثر من اثني عشر قرناً. وقد كان هذا الوضع قائماً قبل الإسلام في أرجاء الإمبراطورية الساسانية بسبب امتداد رقعتها الجغرافية ونظام الطبقات الذي كان سائداً فيها. لذلك لم تسد اللغة الفهلوية أو الفارسية الوسطى سوى الطبقات العليا في المجتمع.

هذا المحيط اللغوي الشبيه بالفسيفساء أدى إلى أمر غريب. فعلى الرغم من هجرة قبائل عربية كثيرة إلى أنحاء إيران المختلفة وآسيا الوسطى ووادي السند وتأثيرها اللغوي في اللهجات المحلية لم تستطع العربية أن

تسود الطبقات الشعبية، بل استوعبت هذه الطبقات العرب الوافدين بالحياة اليومية والمساكنة والمصاهرة فنسيت الأجيال المولدة منها لغتها شيئا فشيئا وذابت في المحيط الإيراني الضخم. وما يزال بعضها يحتفظ بأسماء عشائرها الأصلية حتى اليوم مثل: شيباني، بني عامري وغيرها. حتى إنّ الأجيال اللاحقة منها نشأت على اللغة الأدبية القائمة، شأن رابعة القزداري ابنة أمير بلخ العربي التي قرضت الشعر بالفارسية.

لا يتّسع المقام لضرب أمثلة على ذلك، يكفينا دلالة على ما نذهب إليه أنّ كتاب مرزبان نامة الشهير ألف باللغة الطبرية ونقل فيما بعد إلى الفارسية ومن ثمّ إلى العربية.

كما يكفينا مؤونة الإطالة الإشارة إلى ما جاء في كتاب المقدسي (أبي عبد الله محمد بن أحمد) الموسوم: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم الذي أكمله سنة 375هـ/955م. فهو كنز لغوي، إضافة إلى تبريزه في الناحية الجغرافية²³.

يذكر المقدسي أنّ أسمى درجات العربية في عهده، أي في أواخر القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، كان في فارس، أي في أرض غير عربية اللغة، لأنّ أهل ذلك الصّقع كانوا يبذلون جهدا كبيرا في تعلّمها. فهم، بحسب تعبيره، يتكلّفونها تكلّفاً، ويتعلّمونها تلقّفاً²⁴.

يقابل ذلك ما نعرفه من طغيان العجمة واللغة المولدة على مدن العراق العربي. ولا سيّما البصرة والكوفة وبغداد. فقد كان طلاب العلم والشعراء

²³ - نشره دي خويه De Goeje للمرة الثانية عام 1906 (المجلد 4 من المكتبة الجغرافية العربية).

²⁴ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 32 من طبعة دي خويه.

يؤمنون البادية في أول الأمر لتلقف البيان السليم عن أهلها، فتغيّرت الحال وساد اللّحن والفساد ألسنة الخاصّة والعامة وتسربّ إلى شعر الفحول. حتى إن الفارسيّة سادت في مدن العراق²⁵. ذكر البلاذري أنّ جالية أصفهانيّة يرجع عهدها إلى صدر الإسلام كانت موجودة في البصرة. زد على ذلك وجود فرقة من الرّماة في هذه المدينة قوامها ألفا رجل، استقدمها عبيد الله بن زياد من بخارى، واتّخذ من البصرة لها مقراً، أضف إلى ذلك الأعداد الكبيرة من الفرس الذين وفدوا عليها قبل هذين العهدين، لقربها من البلاد الإيرانيّة²⁶.

وما يقال في البصرة يقال في الكوفة. بل إنّ اختلاط اللغات في الكوفة كان أشدّ إذ إنّها كانت على مقربة من الحيرة قاعدة اللخميّين قبل الإسلام حيث نشأ بهرام جور الملك الساسانيّ، وكان بها مرازمة ودهاقين من الفرس وأسرة عديّ بن زيد العبادي من تميم، وقد كتب لكسرى أبرويز وسفر بينه وبين قيصر الروم. كما كانت معقلاً للثقافة الآرامية، فامتزجت العربيّة فيها بالفارسيّة والآراميّة. وعلى غرار جند البصرة، كان للكوفة أساورتها، أي: قادتها المنتجبون، وهم فرق من عسكر الساسانيّين الذين انضمّوا إلى الجيش العربيّ الفاتح. كان هؤلاء يقاتلون تحت راية رستم في القادسيّة، فعقدوا أماناً مع سعد بن أبي وقاص، واختاروا الكوفة لهم مقراً. وكان عددهم أربعة آلاف. وقد نقل زياد بن أبيه جماعة منهم إلى

²⁵ - فتوح البلدان، ص 336 (طبعة آلود).

²⁶ - ياقوت: معجم البلدان 522/1، وابن قتيبة: عيون الأخبار 132/1.

سوريا عرفوا بالفرس، بأمر من معاوية، وجماعة أخرى إلى البصرة انتظمت في صفوف الأساورة²⁷.

وهكذا شكّل هؤلاء الأساورة مع أسرى الحرب الكثير من الفرس وذرياتهم وضخامة عدد التجار والصناع والمهاجرين إلى البصرة - وهي مرفأً مهم منذ ما قبل الإسلام - معظم سكّان الكوفة. فعدت الفارسيّة لغة التفاهم السائدة فيها. وقد ذكر الجاحظ ذلك وضرب الأمثلة على الألفاظ الفارسية الدخيلة التي حلّت محلّ العربيّة، وكذلك ياقوت في معجم البلدان. وقد امتدّ هذا الوجود الفارسيّ إلى مدن الثغور في شبه الجزيرة العربية، ولا سيّما إلى الحجاز، وبنوع خاص إلى المدينة (يثرب) وجوارها. كما ذكر الجاحظ أيضاً²⁸.

أمام هذه الوقائع والأوضاع ندرك أسباب انتشار العربيّة الواسع كلغة للأدب والثقافة والعلوم في بلدان الخلافة الشرقيّة. وأسباب عدم تحوّلها إلى لغة محكيّة لدى الشعوب المختلفة في إيران وامتدادها الجغرافي إلى الشرق والشمال.

مواقف مثالية:

وإزاء ذلك. لا بدّ لنا من أن نعتصم بالعلم والموضوعيّة كي نأخذ العبر من ماضيّنا فنخطط لمستقبلنا. وأن نجافي المواقف الحماسيّة الطوباويّة التي وقفها بعض الباحثين. غير مراعين التعقيدات الاجتماعية ومعطيات

²⁷ - راجع البلاذري، ص 280، وابن قتيبة: المعارف (طبعة 1330 هـ)، ص 165. سمّوا في الكوفة حمراء ديلم. نسبة إلى نقيبهم. وليس لذلك أية علاقة ببلاد الديلم كما ذكر البلاذري، ص 280. وصفة حمراء نسبة إلى العجم لأنّ ألوانهم كانت كاشفة.

²⁸ - راجع البيان والتبيين 10/1 ومعجم البلدان 338/3.

الماضي التي تختلف عما نحن عليه. فالسيطرة اللغوية للإمبراطوريات كانت تصيب الطبقات العليا من رعاياها وفلولا من الطبقات الدنيا الملحقة بتلك. وقلما تغير وجه الكون دفعة واحدة أو بسحر ساحر. تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن في هذا الصدد:

"فمنذ استقرّ الإسلام في الأقطار التي فتحها، انتصرت العربية على اللغات الأجنبية المفروضة على شعوب المنطقة، ثم أخذت تواجه اللغات الوطنية لهذه الشعوب..."²⁹، إلى أن تقول:

"وكان من المتصور أن تجمع هذه الشعوب بين العربية لغة دين، وبين لغاتها القومية التي صانتها طويلا ضد الغزو، لغة حياة. ولكن لم يمض جيل أو جيلان حتى كانت العربية اللسان المشترك لشعوب أمة واحدة، هجرت إليها ألسنتها القومية دون أن يجبرها أحد على ذلك، كما لم يكرهها مكره على أن تتخلى عن عقائدها وأديانها لتعتنق الإسلام، بل تركت لغة الغرب تخوض معركتها مع لغات الشعوب الداخلة في الإسلام"³⁰. وقد كررت ذلك في مكان ثالث قائلة عن العربية وانتشارها "وكانت لغة الحياة لجماهير الشعوب التي لا يصلها باللغة العليا غير القرآن الكريم"، ثم في رابع حيث قرّرت: "... فالأُم التي أسلمت وتعرّبت كان لها ميراث فكري وعلمي احتاجت إليه الدولة، وفرضه تطور النظم الإدارية والسياسية في الحكم، مع سيادة العربية واستقرارها لسانا للشعوب التي هجرت ألسنتها الأولى إلى لغة القرآن"³¹.

²⁹ - راجع: لغتنا والحياة، دار المعارف بمصر، 1971، ص 60-61.

³⁰ - المرجع نفسه، ص 67.

³¹ - المرجع نفسه، 74.

الآريّة تواجه السّاميّة

وهنا، نعود إلى طرح السؤال المهمّ الذي طرحناه في مقدّمة بحثنا وهو: لماذا لم تتحوّل العربية، على امتداد رقعة الشاهنشاهية الساسانية الشاسعة، إلى لغة تعبير شعبيّة؟ ولماذا لم تهجر شعوبها ألسنتها القوميّة، على عكس ما ذهب إلية صاحبة كتاب "لغتنا والحياة"؟

لقد أجبنا عن بعض جوانب هذا السؤال خلال بحثنا، في سياق موضوعات أخرى مرتبطة بالموضوع الأساسي. ونشير هنا، ابتداءً، إلى أنّ الذي حصل فعلياً وعملياً هو عكس ما ذهب إلية الدكتورة بنت الشاطي. فمئات القبائل العربية التي استقرّت في إيران الكبرى وأثّرت لغتها العربية في لغات الشعوب المغلوبة، ولهجاتها في لهجاتها، ذابت في محيطها بمرور الزمان وتبنّت، بواقع الحال، لغات الأقوام ولهجاتهم، لا اللغة الفارسيّة وحدها التي غدت، كالعربيّة، شيئاً فشيئاً لغة الصفوة المثقفة والشعر والنثر الفني.

ويكفي أن نعود إلى كتاب المقدسي "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" لنتبيّن سيفساء اللغات في بعض مناطق إيران، فهو يذكر اللغات التي كانت لسان الناس في عهده، أي في القرن الرابع للهجرة، ويعدّها. وسنقتصر على ذكر بعضها، مثل: نيسابور وطوس ولسا، وهي متقاربة. أما بست فيصفها بالحسنة، وكذلك بلخ، والتي لسجستان في الجنوب الشرقي ففيها تحامل وخصومة، والتي لهرّاة يصفها بالوحش. ويذكر بعض الفروق بين سرخس وأبيورد وجرجستان (الشار) وجوزجان ومرو ومرو الرّود وبخارى التي يصف لغتها بكثرة الحشو، لكنها لغة البلاط أي

الدريّة لأن بخارى كانت عاصمة الصفاريين والسامانيين. فإذا وصل إلى طخارستان وباميان وصفهما بأنهما مغلفتان لا تفهمان، إلى آخر اللائحة... أما انتشار اللغة العربية إلى جانب اللغات الإيرانية فقد لاحظ المقدسي حدوثه في خوزستان فقال: إنّ أهلها يخلطون بين الفارسية والعربية لأنهم يحسنون اللغتين وينتقلون من الواحدة إلى الأخرى ببسر. ولا نستغرب ذلك، فخوزستان من الغثور، وحالة أهل الغثور معروفة³².

وما ذكره المقدسي يطابق واقع الحال الذي وصفته المصادر التاريخية الأخرى، ولا سيّما المكتوبة بالفارسية. وهو واقع كان قائما في سائر البلدان مثل بلدان آسيا الوسطى حيث انحسر انتشار اللغة العربية حتى بين الصفوة. جاء في تاريخ بخارى المؤلّف في أوائل القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، في ترجمته بالفارسية التي قام بها القبّايوي أنه عمد إلى نقله عن العربية "لأن أكثر الناس لا يرغب في قراءة الكتب العربية"³³.

ثم إنّ لنا دليلا ساطعا آخر على أنّ اللغة العربية لم تنتشر في تلك البقاع إلّا بين الصفوة المثقفة والحاكمة (من غير شمول)، في مديح المتنبي عضد الدولة البويهى. فعندما قصد شاعرنا ذلك الأمير المقتدر العالم الذي

³² - راجع "أحسن التقاسيم"، ص 418.

³³ - راجع تاريخ بخارى، ص 15. في ترجمته بالعربية التي قام بها د. أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشر الطّرزي. ونشرتها دار المعارف بمصر في سلسلة ذخائر العرب (د.ت). والطريف في هذا الكتاب أنّ مؤلّفه وضعه بالعربية، في الأصل، وهو أبو بكر محمد بن جعفر التّرشخي (ت 332 هـ/ 943م)، ثم نقله إلى الفارسية أبو نصر أحمد بن محمد بن نصر القبّايوي (ت 522 هـ/ 1128م)، ثم اختصره محمد بن زفر بن عمر (ت 574 هـ/ 1178م). وقد غيّب الضياع أو سواه الأصل العربيّ، فنقله من جديد إلى العربية من الفارسية بدوي والطّرزي...

تلقّب بشهنشاه وقطع بلاد فارس ليصل إلى شيراز قاعدته لم يسمع خلال رحلته من يتكلّم بالعربية فقال قوله الشهير في وصف "شعب بؤان":

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريب الوجه واليد واللسان³⁴
أما التعليل الذي نراه لكل ذلك فهو الآتي:

شاعت اللغة العربيّة حيث كان استقرار لهجرات عربيّة سابقة للإسلام، وبخاصة حيث كانت اللغات السّامية أخواتها ألسنة الأقوام، فتعرّبت شعوبها ببسر. ففي سورية والعراق. مثلاً، كانت السريانية واللهجات المتفرّعة من الآرامية سائدة في أوساط الكلدان والسريان. والصابئة الذين كانوا وما يزالون يتكلّمون لغتهم السّامية المعروفة بالمندائية. وكذلك كانت السريانية لغة الحرّانيين الذين تسمّوا بالصابئين تقيّة، ولغة الموارنة في جبل لبنان. ولا ننسِين شيوخ السريانية في الحيرة ومحيطها، وسواها من النواحي.

إلاّ أنّ العربيّة واجهت في إيران لغات إيرانية آريّة، إضافة إلى الفارسيّة الدّريّة. وهي لغات تختلف في بنائها وصيغها اختلافاً جوهريّاً عن اللغة العربيّة واللغات السّامية. كما أنّ خصائص شعوبها تختلف عن خصائص الشعوب السّامية. فلم يكن، ثمة تجانس لغويّ وما يستتبعه من نسق متقارب في التفكير، بين العربيّة الوافدة واللغات المتداولة هناك منذ القدم.

³⁴ - راجع ديوان التنبّي.

لذلك وجدت الأسر الإيرانية الحاكمة شبه المستقلة والمستقلة من الطبيعي أن تشجع الشعراء على مدحها بالفارسية الدرية وتعزيزها. فنبغ الرودكي رصيف امرئ القيس عندنا. ثم قام الفردوسي بحركته القومية اللغوية فنظم الشاهنامه مدلاً بتاريخ إيران على جميع الأقوام ولا سيما العرب. وقد كان هذا دأب الصفاريين والسامانيين ثم الغزنويين وحتى السلاجقة. يذكر صاحب "تاريخ سيستان" من ذلك العهد (بالفارسية) أن يعقوب بن الليث الصفار بعد فتوحاته في خراسان واستيلائه على هراة وبوشنج وحصوله على منشور [السلطة] سجستان وكابل وكرمان وفارس من محمد بن طاهر وسحقه الخوارج، تقدّم الشعراء يمدحونه بالعربية فقال لكاثره ولهم: لم يمدحونني بلغة لا أفهمها³⁵؟

ولم نشهد في الأوساط السامية حركات شبيهة بها أو تيارات من هذا القبيل لتقارب اللغات وأنماط التفكير بين شعوبها.

ويوافق تعليلي ملاحظة المؤرخ الكبير فيليب حتي بالنسبة إلى وضع العرب في الأندلس والإسلام والحضارة، بالتالي، يقول حتي: "واستهدفت الأندلس بعد منتصف القرن الثالث عشر لعمليتين، أولهما تنصير أسبانيا والثانية توحيدها. وكان تنصيرها يختلف عن استرجاعها وتوحيدها. فالقسم الوحيد من شبه جزيرة إيبيريا الذي تأصلت فيه جذور الإسلام كان ذاك الذي زهت فيه الحضارة السامية القرطاجية من قبل. ومثل ذلك ينطبق على صقلية، وهي حقيقة على شيء من الأهمية. فقد كان الخط الفاصل بين الإسلام والنصرانية بوجه عام يطابق الحدود القديمة الفاصلة

³⁵ - تاريخ سيستان (بالفارسية)، طبعة طهران، ص 209.

بين المدنيّة الفينيقيّة والمدنيّة العربيّة". ينتهي كلام حتّي وجرجي وجبّور هنا، بالنسبة إلى هذا المطلب. لكنّهم في الفقرة نفسها يسوقون الكلام على المسلمين المدجنين في الأندلس الذين يشبه وضعهم، على مرّ الزمان ونشوء أجيال جديدة، وضع العرب الذين انتقلوا إلى إيران وآسيا الوسطى وسواهما وذابوا فيها. يقول المؤرّخون الثلاثة: "ولم ينته القرن الثالث عشر حتى كان كثيرون من المسلمين قد انضوا تحت لواء النصرانية إمّا عنوة أو صلحا ولكنهم ظلّوا متمسّكين بشرائعهم ودينهم. وقد أطلق على أمثال هؤلاء من المسلمين اسم المدجنين "Mudejars" (مدخار بالأسبانية). وكان كثير منهم قد نسوا العربيّة واكتسبوا لغة الرومانس الأسبانية وأخذوا ينخرطون في سلك الجماعة المسيحيّة ويذوبون فيها"³⁶.

العربيّة تستمرّ في إيران

بعد هذه الجولة السريعة فوق تضاريس انتشار العربيّة في إيران وما تاخمها شرقا وشمالا، لا بدّ لنا من القول إنّ تأليف الصفوة المثقّفة في تلك الديار باللغة العربيّة ظلّ مستمرّاً بعد القرون الوسطى، وإن بوتيرة هادئة، ولا سيّما في شؤون الدين والفلسفة.

أما في العصر الحديث فاستمرّ الأمر على هذا المنوال في الشؤون الدينيّة بوتيرة أهدأ. إلّا أنّ مجال الشعر عاد إلى الانفتاح أمام العربيّة من جديد، فنّبّه في القرن العشرين شعراء إيرانيون كثر باللغة العربيّة عاش بعضهم في البلدان العربيّة، ولا سيّما في العراق، مثل عبّاس الخليلي الذي استمرّ في

³⁶ - حتّي وجرجي وجبّور: تاريخ العرب (مطوّل)، 655/2، الطبعة الرابعة، دار الكشف،

العطاء حتى أواخر الستينيات من القرن المنصرم شعرا رقيقا يذكر بالعبّاس بن الأحنف. وما يذكر في هذا الصّد أنّ موهبته الشعريّة انتقلت إلى ابنته سيمين بهبهاني التي تعتبر من شعراء إيران البارزين في القرن العشرين، إلّا أنّها، خلاف والدها، شعرت باللغة الفارسيّة.

رأس مال غير مستثمر

أمّا في عهد الجمهورية الإسلاميّة الإيرانيّة فقد عزّزت مكانة العربيّة في إيران في المبدأ والتطبيق. لقد اتّخذت السلطة موقفا رسميّاً في هذا الشأن فأفردت للغة العربيّة مادة في دستورها الجديد هي المادّة السادسة عشرة، جاء فيها:

”بما أنّ لغة القرآن والعلوم والمعارف الإسلاميّة هي العربيّة وأنّ الأدب الفارسي ممتزج معها بشكل كامل، لذا يجب تدريس هذه اللغة بعد المرحلة الابتدائيّة حتى نهاية المرحلة الثانويّة“.

وقد طبّقت هذه المادّة بالفعل فعَمَّ تدريس اللغة في المدارس، وأُلّفت في هذا المجال كتب خاصّة موجّهة لتدريس التلامذة، إضافة إلى كتب قديمة كانت مستعملة فيما قبل. وإذا عرفنا أنّ عدد التلامذة في المرحلة الثانويّة في إيران يتجاوز الستة عشر مليوناً قدرنا الأهميّة التي تنطوي عليها هذه المادّة الدستوريّة، ومدى انتشار اللغة العربيّة في إيران الجمهوريّة في جيل الشباب، إلى جانب سيادتها في الحوزات الدينيّة في مختلف المدن والنواحي الإيرانيّة.

والجدير بالذكر أيضاً أنّ أقساماً للغة العربيّة وآدابها تقوم في الجامعات الإيرانيّة الكبرى منذ ما قبل الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، وقد عزّزت

في في عهدها. وهي من حيث البرامج والمناهج ومستويات التدريس في مرحلتي الإجازة والدراسات العليا تشابه رصيفاتها في جامعات الدول العربية. وإذا كان الجيل القديم- على رغم تبحره في علوم اللغة والعلوم الموصلة، بشكل عام، إضافة إلى اطلاعه الواسع على الآداب وما إليها- يرتطن لكنة فارسية، فقلما تقع في جيلنا على من لا يتكلم العربية مثل أهلها، مع تنوع في اللهجات وفاق البلاد التي يكون تردّد إليها أو نشأ فيها أو أكمل فيها دراساته العليا.

وقد أشرفت شخصياً على أطاريح للدكتوراه لطلاب إيرانيين في الجامعة اللبنانية وسواها كانت من بين الأطاريح المبرزة في حقول العربية وآدابها. وهذا ما صرح به إليّ أساتذة عرب كبار من جيلنا وأجيال من جاؤوا قبلنا في مختلف البلدان العربية.

من جهة أخرى، نشرت في إيران، عبر العصور، مخطوطات كثيرة عربية اللغة حققها أساتذة إيرانيون وأفاد منها العرب والدارسون. إلا أن الذي يسترعي النظر، منذ قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية، هو العدد الكبير من المخطوطات العربية التي تنشر في إيران، سواء منها ما ينشر لأول مرة أم ما يعاد نشره بالعودة إلى نسخ لم تكن في متناول المستشرقين أو البحاثة العرب، في مختلف علوم الدين واللغة وفي الآداب والفلسفة، ويقوم بتحقيق المخطوطات تحقيقاً علمياً أساتذة إيرانيون وأحياناً باحثون من العرب في إطار من التعاون الخير.

هذا الذي أشرنا إليه وأمور أخرى لم نتناولها يدلّ على أن اللغة العربية وما تحمله من حضارة ترتع في إيران في محيط غير غريب عنها،

بل هي تشكّل حجر الزاوية في ثقافة الأمة الإيرانية منذ انتشار الإسلام في ربوعها حتى اليوم. ورغم سيطرة الإنكليزية في بقاع العالم وإقبال الناس عليها في إيران، كما في سواها، ورواج لغات حضاريّة عريقة فيها كالفرنسية والألمانية، فإنّ العربية إلى جانب الفارسيّة تبقى في أسّ البناء اللغوي والحضاريّ للشخصيّة الإيرانيّة.

إذا تملّينا هذه الشؤون برويّة تبدّى لأهل العربيّة رأس المال اللغويّ- الحضاريّ الضخم والعريق الذي تحصّل لهم في إيران والذي لم يستثمروه حتى الآن. وهو رأس مال ينسحب، عبر إيران، إلى بلدان أخرى كانت جزءاً من إيران الكبرى أيام امتدادها الإمبراطوريّ: أفغانستان، باكستان، أقسام من الهند، آسيا الوسطى في جمهورياتها الخمس، اليوم، بلوغا إلى القوقاس.

الإنقاذ الموعود

وفي عصر تتنافس فيه الأمم لنشر لغاتها وثقافاتهما في مواجهة مدّ العولة، ونرى منظومة الدول "الفرنكوفونيّة" تحشد طاقاتها في مواجهة الإنكليزية والأمركة الطاغية، حفاظاً على مواقعها القديمة وسعياً إلى مساحات جديدة، ولو يسيرة، لا نتبيّن أيّ جهد مرموق لجامعة الدول العربية أو للدول العربيّة منفردة في الحفاظ على مواقعنا في الدول الإسلاميّة أو الدّول المشبعة بالثقافة العربيّة الإسلاميّة.

انطلاقاً من هذه المعطيات أدعو الدول العربيّة إلى إنشاء منظّمة خاصّة، لا صبغة حكوميّة لها، تعنى بتنمية تدريس اللّغة العربيّة في الدّول الإسلاميّة غير الناطقة بالعربيّة، وتدريس بعض العلوم والمعارف الإسلاميّة

بها، وكذلك بين الشعوب الإفريقية والآسيوية التي تربطنا بها علاقات جوار أو روابط خاصّة. هذا، إضافة إلى الجهد الذي يجب أن نبذله منذ الآن في إطار المنظّمة المذكورة لنشر لغتنا في بلدان العالم، ولا سيّما تلك التي تربط العرب بها علاقات حسنة مثل فرنسا حيث يعيش بضعة ملايين من العرب، ومثل إسبانيا وإيطاليا اللتين كان للثقافة العربيّة فيهما جذور عريقة طوال قرون متمادية. ثمّ، انطلاقاً من هذه القواعد، نوسّع دائرة انتشار العربيّة في العالم.

إنّ مجال انتشار اللغة العربيّة، سواء من حيث المتكلّمين بها عدداً، أم من حيث البلدان التي تغطّيها، يفوق مجال انتشار الفرنسيّة. فإذا قارنا نشاط منظمة الدول الفرنكوفونية بنشاطنا تبين لنا غيابنا المريع عن مسرح السباق العالميّ وحضور سوانا المناضل بعناد واستمرار. فهلّا اعتبرنا؟! إنّ الاعتبار شرط لتقدّم الفرد والجماعة، وهو شأن جوهريّ ندب إليه الله الإنسان خليفته في الأرض ليعمرها إقراراً بفضلّه، تعالى.